

في ديوان (فرع البيدر) للشاعر إبراهيم الحاجي .. قدرة فائقة على الابتكار وتطويع اللغة والمفردة .

عرفتُ الشاعر المبدع السيد إبراهيم الحاجي عن كُتب - كما يقال - منذ انضمامه لملتقى ابن المقرب قبل 14 عاما تقريبا جاءنا شابا طموحا ، متقد الذهنية ، حادَ الذكاء ، فاتحًا فكره وبصيرته للإبداع . والإبداع فقط لا شريك له . فكان شعلهً من تفكر شعري متقد ، ولهفةً متحفزة من طموحٍ راسخ ، وعطشًا لا يُطفأُ وقيدُهُ للكلمة الرصينة ، والمعنى الشفيف ، والإيقاع المُموسق المتناسق .

وجدناه يُخطو بوّثباتٍ عالية ، فيما يحبو غيرُهُ في ميدان الإبداع . حتى استطاع وبجدارةٍ أن يحتل مكانته التي يستحقها ، في قمة الإبداع ، بخيال مُتقد ، وفكر عميق ، وثقافةٍ عالية استطاعَ أن يُطوّع مخزونها ليُشكّل بها لغتها الخاصة . ففي الوقت الذي لم يستطع بعضُ مجايليه أن يخرجوا من عباءة مَنْ سبقوهم ؛ اختطّ هو لنفسه نهجه الخاص ، ورسم لوحته السريالية التي لا تشبه أحدًا .

وفي اللحظة التي - كنا نراه فيها تأخر كثيرًا - لم يتعجل النشر ، وحين نستحثُّه : أن غيره ممن لا يمتلك ربع أو عُشرَ موهبته تجاوزه بأربعة أو خمسة إصدارات يصرُّ هو أن مواعده لم يحن بعد ، وأن تلك النبتةَ الحالمة في مخياله الجامح سيمرُّ عليه يومًا فيُروّضه ليتقبلها بقبول حسن . وربما أراد لثمرته أن تنضج تمامًا فيقطعها يانعة غضةً لا مرارة ولا حشفًا فيها . أو أراد لتلك الشتلة العابقة أن تتمردَ شذىً وتنفلتَ رائحة زكيةً فيلمسُها في باقة تليق بها .

والآن وقد أسعدنا بباكورتته و(فرع بيدرهِ) وضعنا وجهًا لوجه أمام تجربةٍ متميزة ، كنا نتشهاها من بعيد ، فوجدناها ماثلةً أمامنا ، وحاضرة بكل أناقة فوق موائدنا لنلتهمها ونتروّاها بكل لذة واشتهاء .

فشكرًا يا خيمة المتنبي - حاضنةً وراعيةً ومتفضلةً على المشهد الأدبي - بهذا الطبق الشهّي ، وبهذه المائدة العامرة بكل ماهو مختلف لذةً وطعمًا واشتهاءً .

وهنا حين نحاول أن نلجَ عالم هذا الديوان الأنيق فإننا سنصافحه من عنوانه ، فالعنوان عتبةُ النص - كما يقال - ففيه يُختزل البعدُ الدلالي والمعنوي وغالبًا الإيقاعي لقصائده التسع والعشرين التي ضمها بين دفتيه . فمزج فيها العمودي بكل حدائثه معنًى وإيقاعًا ، والتفعيلة بكل إيقاعها القوي ،

ومساحتها الحرة.

(فزع البيدر) هنا يتجلى ما نُسَميه الديوان القصيدة ، أو القصيدة الديوان ، أو هما معاً ممتزجين ببعضهما . فقد استلَّ الشاعرُ بذكاءٍ عنوانه من عنوان قصيدة رآها تختصرُ باقتدار البعد الشعوري والتحريضي وكثيراً الإيقاعي لكل الديوان.

وكما نتفق جميعاً أن الاسم والمصدر أقوى بكثير من الفعل فالفزع هنا اسمٌ يتجاوز بمراحل (يفزع) فعلاً وهنا ندركُ قدرة الشاعر على انتقاء مفردته التي لا تلامس دلالة فقط بل تقتحمه اقتحاماً يوصل معناه للمتلقى ويقنعه بكل قوة واقتدار.

فحين يتمثل البيدرُ (فزعه) فلا شك أن مواسم كثيرةً من الحصاد مهددةٌ بالتشطي والجفاف ، وأن يبساً سيحاصره من ست جهات ، ليزروه في أعين منتظري مواسمه شطائياً من أمل مسحوق.

أمدٌ يديّ - بهذا الفراغ الطويل

فأصطادني نورساً

حاملاً وحشة الصمت

لا يستطيع العبور

قبالة شطآن هذي الليالي

وحيدا وحيدا.

هنا الحاجي في هذا النص وكأغلب نصوصه يقف متحفّزاً بسؤال عميق ، بأبعاده الفلسفية ، والمعرفية . وغالباً العرفانية العقلانية التي تُحاول جاهدة أن تفتصّ لغز بل ألغاز هذا الوجود.

وللشعر عند الحاجي سمةٌ التجلي والانصهار في النفس البشرية ليوقدّها أحاسيس مرهفة ، ومشاعر فياضة ، وفيوضاتٍ مُتقدّة. فهو حين يعرف الشعر كعتبة لقصائد الديوان إنما يتمثّله كياناً يعبر من خلاله

إلى كل الأشياء. وهو لن يبحث عنه بين متاهاتِ الدروبِ التائهة ، أو عبر الوجوه الشاحبة ، وإنما
يتسرب فيه كماءٍ رقيق :

يتسربُ فيّ الشعرُ

شفيفًا كالماءِ

إلى الأعماقِ حياةً أخرى.

فالشعر كان ولم يزل يحقن صمتَ الموجودات ليعبثها أحاسيس وحنينًا :

ويحفّز في الأشرطة حنين السفرِ

فلا يسكن إلا في عرض التفعيلةِ موسيقى وغناء°.

وهل هناك أروع من هذه الصورة :

يأتي الشعرُ

فيسترُ عري البوحِ

إذا ما أشرقَ

وجهُ القافيةِ / المعشوقِ مع الأصواء.

ومَن أقدرُ من الشعر حين تتغشى العقولَ ظلمةٌ فكَّ لغز ما تسربلَ فيه الكونُ لغزًا مستترًا عن كنه
أكثر الموجودات انفتادًا ، وأوسع الأخيلةِ انزيادًا :

شعرُ

ذرّته سراة الوحشةِ

في البیداءِ حذاءٍ

أوضحَ شمسًا

أصدقَ طلا للتعَبِ

من قدر الأيام الممتدّ هـنالك هما وبكاءٍ

ولأبّ (الغائب الحاضر) في ذهن الحَاجي ، غائب لأنه لم يره ، وحاضرٌ في ذهنه حضورًا قويًّا يستمد منه الحياة ، ويتنفس من رئة طيوفه الوجودَ . فكيف له أن يحيا أو يرمّم ما تكسّر وتشطى من آماله لولا هذا الطيفُ الجابرُ لكسره :

عرفتُك طيفًا من رياضك جئت لي

تُرمّمُ في الآمالِ ما قد تكسّرا

فكأن هذا الطيفَ ينفخُ فيه الهدوء والسكينة والأمان من كل منغصات الحياة :

وما بتُّ يومًا في أمانٍ من الأسى

إذا كان طيفُ منك عني تأخر

فما زال هذا الطفلُ يجري في دمه ، وما زالت هذه العلاقةُ والطيوف التي امتدّت حبّلا متينًا ، وحصنًا حصينًا لتجسد له أبيًا لم يره ، ولتشده للنبيع الذي جرى ماءُ حياته رقراقًا منه :

تُفتّحُ في مسرى الطفولاتِ رحلتي

تظلل روعي إن دنا الهمُّ ممطرا

أُحسُّ يدك الآن شدّت بداخلي

أبوّ تكّ البيضاءَ حصنًا مسورا

أبوّ تكّ البيضاءَ حصنًا مسورا

ويبدو أن هذا الطفل الذي وُلد معه ، تشبّث فيه ولم يشأ مُفارقتَه في كل خُطوات عمره المديدة ، وأن طيوف أحلامه المتعبات التي امتزجت به في حنوّه لأبيه ما زالت تترقبُه ذاتًا وروحًا . يقول في نصّه (المسافة تلتفتُ) :

أرى الطفلَ

ذاك الذي كنتُـه ذاتَ عمرٍ

يحدّق فيّ - مليّـا

وعيناه فاضت على خد أحلامه المتعباتِ

وفي غفلةٍ من عيون الليالي

أشار إلى خربشات الطفولةِ

ثم إلى غيمةٍ بالحنان تغدّي

وفي حُصنها ناحلاً شفّه الانتظارُ

ويعودُ مرةً أخرى لهذا الطفل وهذه المرة في نصّه (هجر والطفل والقمر) وهنا تتجلى علاقة الطفل بالمكان :

كبرتُ وما زالَ في داخلي

انكسارهُ طفلٍ بوجه الممطرُ

وجدتُك حقلاً بريء النخيلِ

زكيٌّ الورودِ بهيِّ الزهرُ

فرحتُ أخبء من حزنِ روحي

بين النخيلِ وتحت الحجرِ

وفي نمه (النزف اللاهث) كما في نصوصٍ أخرى يحفل بها هذا الديوان يتجلى لدى الحاجي قلقُ السؤال ، وهمُّ الغوص في الأعماق لمعرفة كنه الأشياء ، ولعل هذا القلق والهم المعرفي هو ما يجعل نصوصه في لهثٍ دائم لإجابة تساؤلاته ، وسماع صوتِ شجنه الداخلي المحفور في أعماق روحه القلقة دائماً بالسؤال :

قلقة دائماً بالسؤال :

من تحت جسور الأليام

مضيّت وحيداً

ويدا ألمي

داخل أكمام الخوف

فال أبح حتى أبلغ مجمع أشعاري

أو أمضي في طرق القدار غريباً

وصدى النفاـس

يمزق أستار المعنى

ويعربُد في جسد الحـبـر

يبعثر فـي الكلمات

وفي نَمِّه (قبس من وجع المرسلين) وهو أقدم نصوص الديوان المؤرخة عام 1433 هـ .. وبصفته معلماً يبدو أنه أراد أن يجسد هَمَّ المعلم ، فبه يجسد همه الذاتي ، ويرسم - وهو الفنان التشكيلي الذي رسم بالكلمات أبهى وأروع صوره - فيرسم لوحة لهذا المعلم الذي يراه صَنَو المرسلين في رسالته. وربما عَبر في الالوعي عن هذا الجهد الذي يبذله هذا المعلم بتكرار الأفعال في النص بشكل كبير بين ماضيها ومضارعها فتسمعه يقول :

لَّيْنِ أَشْرَقَتْ تَرَحُّلَاتٍ فَتَعَصَّرُ تَظَلُّ تَشَّدُّ تَحْزَنُ تَرْتَقِ طَوَيْتَ حَمَلَاتٍ ، أَصَاتُ ، أَنَهَرْتُ ، تَرَسُّمُ تَمْهَدُ
تَسْلُسُلُ فَتَرْوِيهِمْ يَنْبُو تَهْطَلُ تُتْ
وَتَقَنَعُ فَتَحَتِ .

طَوَيْتَ دُرُوبَ الْعِلْمِ مِنْكَ بِهِمَّةٍ
فَإِنْ تَخُطُّ كَانَ الْخَطُّو مِنْكَ تَوَثُّبًا
وَتَقْنَعُ بِالْمُرِّ النَّقِيعِ لِيَرْتَوِي
فَوَاؤُ دَنْدِي حِينَ أَلْفَاكِ مَتَعِبًا
كَأَنَّكَ وَالْجِيَالُ رِيحٌ مَعَ اللَّطِي
إِذَا هَبَّ بِالْأَفْهَامِ زَادَتْ تَلْهَبًا

*

ولعل ثيمةَ الحزن والتعب الفكري، واللهث المعرفي لسبر كنه الحياة، والإيقاع القوي ، الذي يحمل فوق كتفيه خيالاً خصيلاً ، مجنحاً بمعانٍ مبتكرة هي من أكثر ما يميّز هذا الديوان الأنيق.

طبعاً وفي هذه العجالة التي لم تسعفني أن أغوص عميقاً لأستخرج درره الكثيرة ، المكتنزة بجمال الصورة ، وصفاء المعنى ، وصدق الشعور .. ولكن : مالا يدرك كلاًُّه لا يُترك جلاّه .

أخيراً .. واقعاً نحن أمام موهبة متفجرة ، وشلالٍ هادر من الإبداع وخيالٍ متوثب من التجلّي والألق، وحرفٍ لا يشبه غيره ، وقدرةٍ فائقة على الابتكار وتطويع اللغة والمفردة .. وبرأيي القاصر أن هذا المبدع لم ينل حقه من الانتشار، والاحتفاء الذي يليق بموهبةٍ بحجم موهبته الكبيرة ، فكم من مواهبٍ دونَه صوتُها عالٍ ، وإلحاحها دائم ، أصبح يشار لها بالأكف لا بالبنان ، رغم أن بضاعتها مزجاةٌ ، وشعرها حشفٌ وسوءٌ كيلة .

وهنا أكرر شكري لخيمة المتنبي لهذا الاحتفاء المستحق ، ولعلها تكونُ بادرةً لمبادراتٍ كثيرة من مؤسسات

ومنتديات أخرى ليُعطى هذا المبدعُ حقه .

